بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾

في عزّة في حميّة(١) واستكبار عنه(٢) وأنفة مذمومة(٣).

وشقاق : وخلاف(٤) ومخالفة وكونك في شقٍّ غير شقّ صاحبك(٥) ومعاندة ومفارقة(٦).

ليس الأمر كما زعم كفّار مكّة أنّك يا محمّد لست مرسلا، بل الحقيقة أنّ القوم قد استحوذت عليهم الحميّة الجاهليّة. والاستكبار عن توحيد الله تعالى، واستبدّت بهم شهوة المخالفة للرّسول الكريم ﷺ ومعاندته ومفارقته.

كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

كم : خبريّة كناية عن كثير في محلّ نصب مفعول به مقدّم(٧) أي كثيرا أهلكنا(٨).

من قرن : أي أمّة من الأمم الماضية المكذّبة(٩).

---

(١) تفسير الطّبري ٢٣/ ٧٦ ومفردات الرّاغب الأصفهاني : «عزّ» ٢/ ٤٣٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٣.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «عزّ» ٢/ ٤٣٣.

(٤) تفسير الطّبري ٢٣/ ٧٦.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «شق» ١/ ٣٤٨.

(٦) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٣.

(٧) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٨٠.

(٨) تفسير الطّبري ٢٣/ ٧٦.

(٩) انظر الجلالين وتفسير الطّبري ٢٣/ ٧٦.

فنادوا : فعجُّوا إلى ربّهم وضجّوا واستغاثوا بالتّوبة إليه حين نزل بهم بأس الله وعاينوا عذابه فراراً من عقابه وهرباً من أليم عذابه(١).

ولات : الواو واو الحال. لات حرف نفي يعمل عمل ليس، واسمه محذوف تقديره الحين(٢) ولات هي لا الّتى للنّفي زيدت معها التّاء، كما تزاد في ثمَّ فيقولون : ثُمَّت. وربّ فيقولون : ربّت. وهي مفصولة، والوقف عليها(٣).

حين : خبر لات(٤).

مناص : مفرّ وفِرار وهرب(٥) يقول : وليس ذلك حينَ فِرارٍ ولا هربٍ من العذاب بالتّوبة وقد حقّت كلمة العذاب عليهم، وتابوا حين لا تنفعهم التّوبة، واستقالوا في غير وقت الإقالة(٦).

كثيراً من الأمم السّابقة الّتى كذّبت رسل الله تعالى إليها قد أهلكناهم. وحينما حلّ بهم العذاب ونزل بساحتهم الهلاك أعلنوا التّوبة، وجأروا إلى الله تعالى بالاستغفار والنّدم على ما فرّطوا في جنب الله تعالى، وعلى ما فرط منهم في حقّ رسل الله تعالى، ونادوا بالثّبور والحسرة، ولم ينفعهم شيءٌ من ذلك. وليس الوقت وقت فِرارٍ من الذّنوب، ورجوعٍ إلى الله تعالى وتوبة نصوح، وهربٍ من العقاب والعذاب. لقد فات الأوان، وحلّ العذاب، فعلى كفّار مكّة أن يتّعظوا ويبادروا إلى التّوبة النّصوح وإلاّ حلّ بهم العذاب الّذى حلّ بالسّابقين.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٣/ ٧٦.

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٨٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٤.

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٨٠.

(٥) تفسير الطّبري ٢٣/ ٧٦.

(٦) تفسير الطّبري ٢٣/ ٧٦.

وَعَجِبُوٓا۟
أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾
أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾

وعجب كفّار مكّة المنكرون وحدانية الله تعالى أن جاءهم منذرٌ منهم هو محمّدٌ ﷺ ينذرهم عذاب الله تعالى إن أصرّوا على شركهم، وقال الكافرون حينما دعاهم النّبيّ ﷺ أن يقولوا: لا إله إلاّ الله: هذا الشّخص الّذى يدعونا إلى توحيد الله تعالى والّذى يزعم أنّ الله تعالى أوحى إليه القرآن الكريم ساحرٌ لديه قوىً خفيّةٌ شرّيرةٌ تعينه وتمكّنه من أن يفرّق بين المرء وبين أعزّ أحبّائه، وكذّابٌ يؤلّف القرآن من ذات نفسه ويزعم أنّ الله تعالى أوحاه إليه.

وسأل أولئك الكافرون في تعجّب وإنكار: أجعل محمّدٌ الآلهة الّتى نعبدها نحن ويعبدها الآخرون إلهاً واحداً! إنّ هذا الّذى يدعونا محمّد إلى الإيمان به بتوحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة وقول: لا إله إلاّ الله، لهو أعجب العجب! كيف يتّسع إلهٌ واحدٌ لكلّ النّاس، وكيف يسع هذا الكون كلّه إلهٌ واحد!.

جاء في سبب نزول الآيتين الكريمتين وسائر الآيات الكريمات، من أوّل السّورة الكريمة أنّ أبا طالب عمّ النّبيّ ﷺ حينما مرض خافوا أن يموت قبل أن ينصح محمّداً ابن أخيه بالكفّ عن شتم آلهتهم وتسفيه أحلامهم. ذهب الملأ من قريش وفيهم أبو جهل بن هشام وشكوا محمّداً ﷺ وطلبوا منه أن يعرض على محمّد ﷺ اقتراحهم بأن يترك آلهتهم فلا يعرض لها بسوء وأن يتركوه وإلهه. دعا أبو طالب ابن أخيه وعرض عليه اقتراح الملأ من قريش فطلب منه أن يقولوا كلمة واحدةً هي كلمة التّوحيد بقول: لا إله إلاّ الله، وهي كلمة وعدهم ﷺ أن يملكوا بها العرب وتدين لهم بها العجم، فرفضوا الطّلب وأعلنوا عجبهم أن يسع هذا الكون كلّه إلهٌ واحد. لقد نزلت الآيات الكريمات الأُوَل من سورة ص في هذه المناسبة(١).

(١) انظر - مثلاً - تفسير الطّبري ٢٣/ ٧٩-٨١ وتفسير ابن كثير ٧/ ٤٥ وأسباب النّزول للواحدى النّيسابوري ٤٢٤ والسّيرة النّبويّة لابن هشام ١/ ٤١٥-٤١٩ حلبى

وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ

مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾
مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ
عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ
﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم
مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾
جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

وانطلق الملأ منهم : من مجلس اجتماعهم عند أبى طالب(١) أن أمشوا : استمرّوا على دينكم(٢).

إنّ هذا لشيءٌ يراد : إنّ هذا القول الّذى يقول محمّد ويدعونا إليه من قول : لا إله إلاّ الله، شيءٌ يريده منّا محمّد يطلب به الاستعلاء علينا وأن نكون له فيه أتباعاً ولسنا مجيبيه إلى ذلك(٣).

في الملّة : في الدّين(٤).

الآخرة : النّصرانيّة(٥).

إن هذا : ما هذا(٦).

إلاّ اختلاق : إلاّ كذبٌ اختلقه محمّد وتخرّصه(٧).

---

(١) الجلالين.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٥.

(٣) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٠.

(٤) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٠.

(٥) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٠.

(٦) الجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٨٢.

(٧) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨١ وانظر السّيرة النّبويّة لابن هشام ١/ ٤١٩.

الذّكر : القرآن(١).

بل هم في شكٍّ من ذكري : ما بهؤلاء المشركين ألاّ يكونوا أهل علمٍ بأنّ محمّداً صادقٌ ولكنّهم في شكٍّ من وحينا إليه، وفي هذا القرآن الّذى أنزلناه إليه أنّه من عندنا(٢).

فليرتقوا في الأسباب : فليصعدوا في طرق السّماء وأبوابها(٣) وأصل السّبب عند العرب كلّ ما تسبّب به إلى الوصول إلى المطلوب من حبلٍ أو وسيلةٍ أو رحم أو قرابةٍ أو طريقٍ أو محجّةٍ وغير ذلك(٤).

جندٌ : خبر لمبتدأ محذوفٍ تقديره هم(٥).

هنالك : ببدر(٦).

من الأحزاب : من جنس الأحزاب المتحزّبين على الأنبياء قبلك(٧) ومعنى الكلام : هم جندٌ من الأحزاب مهزومٌ هنالك(٨).

أعرض الملأ من قريش وكبراؤها وأشرافها عن دعوة النّبيّ ﷺ لهم إلى توحيد الله تعالى، وانطلقوا من مجلس أبى طالب وقال بعضهم لبعض: استمرّوا على عبادة آلهتكم وأصنامكم وأوثانكم. إنّ هذا الّذى يدعوكم محمّد إلى قوله والإيمان به من أنّه لا إله إلاّ الله لشيءٌ يريد محمّد من ورائه أن يكون له الذّكر الحسن بيننا، والرّئاسة علينا، والخير الوفير له من دوننا. إنّ إفراد الله تعالى بالعبادة قولٌ ما سمعنا به في دين النّصرانيّة وملّتها. ما هذا الّذى يدعونا محمّدٌ إليه من

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٧ والجلالين.

(٢) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨١.

(٣) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٢.

(٤) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٢.

(٥) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٨٤ وتفسير الطّبري ٢٣/ ٨٢.

(٦) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٢.

(٧) الجلالين.

(٨) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٢.

توحيد لله تعالى إلاّ محض كذب وافتراء على الله تعالى. أأنزل القرآن على محمّدٍ من بيننا ونحن الأكثر أموالاً وأولاداً وشرفاً وجاهاً ومَنَعة.

الحقيقة أنّ كفّار مكّة في شكٍّ من القرآن الكريم الّذى يذكّر النّاسين، وينبّه الغافلين، ويعظ المذنبين، وينكرون أن يكون هذا القرآن الكريم كلام ربّ العالمين نزل به الرّوح الأمين جبريل عليه السّلام على قلب المصطفى ﷺ ليكون من المنذرين.

والحقيقة أنّ كفّار مكّة لم يذوقوا عذابى بعد وظنّوا أنّ إمهالي لهم إهمالٌ لهم، لهذا هم يكذّبون المصطفى ﷺ وينكرون أن يكون القرآن الكريم كلام ربّ العالمين.

أم أنّ كفّار مكّة عندهم خزائن رحمة ربك يا محمّد من نبوّة ووحيٍ وما إليهما فيعطونها من أحبّوا، ويمنعونها من كرهوا. إنّ خزائن رحمة ربّك يا محمّد بيد الله تعالى العزيز في ملكه الّذى يهب من يشاء بغير حساب. أم أنّ كفّار مكّة لهم ملك السّماوات والأرض وما بينهما فليصعدوا في أسباب السّماء، وليفتحوا أبوابها، وليسيروا في طرقها، وليسبروا أغوارها، وليحصلوا على ما أرادوا من خير، وقدّروا من نفع، وليعطوا من شاءوا، وليحرموا من أرادوا، وليمنعوا الوحي!.

إنّ شيئاً من ذلك ليس لكفّار مكّة منه من قطمير فلماذا يحسدون محمّداً ﷺ على ما أكرمه الله تعالى به من نعمة النّبوّة وخصّه به من وحي.

إنّ كافرى مكّة المكذّبين محمّداً ﷺ المنكرين القرآن الكريم هم في حقيقة الأمر جندٌ حقيرٌ مهزومٌ هنالك ببدرٍ في يوم الفرقان، وهم من جنس الجماعات الّتى تحزّبت على الكفر ضدّ رسل الله تعالى إليها وتعاونت على الإثم والعدوان، فمصير هؤلاء جميعاً الهلاك والخسران. وإنّ على كفّار مكّة أن يستفيدوا من إمهال الله تعالى لهم فيتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحا قبل فوات الأوان ويقال لهم كما قيل للسّابقين: ﴿ولات حين مناص﴾.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ
لْـَٔيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ
فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾

وفرعون ذو الأوتّاد : كان يعذّب النّاس بالأوتاد(١) كان يتد لكلّ من يغضب عليه أربعة أوتاد يشدّ إليها يديه ورجليه ويعذّبه(٢).

وأصحاب الأيكة : الأيك شجرٌ ملتفّ. وأصحاب الأيكة قيل : نُسبوا إلى غيضةٍ كانوا يسكنونها، وقيل هى اسم بلد(٣) وهم قوم شعيبٍ عليه السّلام(٤).

أولئك الأحزاب : هؤلاء الجماعات المجتمعة والأحزاب المتحزّبة على معاصى الله والكفر به، الّذين منهم يا محمّد مشركو قومك، وهم مسلوكٌ بهم سبيلهم(٥).

إن كلٌّ إلاّ كذّب الرّسل : ما كلّ هؤلاء الأمم إلاّ كذّب رسل الله(٦).

فحقّ عقاب : فوجب عليهم عقاب الله إيّاهم وعذابه(٧).

كذّبت قبل كفّار مكّة قومُ نوحٍ عليه السّلام، أوّل رسل الله تعالى إلى النّاس، والأب الثّانى للبشريّة، وعادٌ في جنوبيّ الجزيرة العربيّة قوم هودٍ عليه السّلام، وفرعونُ طاغية مصر الّذى كذّب موسى عليه السّلام، والّذى كان يشدّ

---

(١) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٣.

(٢) الجلالين.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «أيك» ١/ ٣٨.

(٤) الجلالين.

(٥) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٣.

(٦) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٣ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٨٤.

(٧) انظر تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٣.

الواحد من خصومه إلى أربعة أوتاد يربطها في يديه ورجليه. وكذّبت ثمود في شمالىّ الجزيرة العربية قوم صالح عليه السّلام، وقومُ لوطٍ عليه السّلام ابن أخى إبراهيم عليه السّلام، وقرى قوم لوطٍ عليه السّلام في الأردنّ، وكذّب أصحاب الأيكة والشّجر الملتفّ لكثافته وهم قوم شعيبٍ عليه السّلام. إنّ كلّ هذه الأقوام الّتى كذّبت رسل الله تعالى إليها قد تحزّبت على الكفر بالله تعالى، وتكذيب رسله، وارتكاب الآثام، وإتيان المعاصى.

إنّ كلّ هؤلاء الأقوام قد كذّبوا رسل الله تعالى إليهم فحقّ عليهم عقاب الله تعالى ووجب عليهم عذابه.

ويصحّ أن يكون ترتيب تلك الأمم تاريخيّاً على النّحو التّالى: قوم نوحٍ عليه السّلام، عاد وثمود، قوم لوطٍ عليه السّلام. ويصحُّ أن يكون فرعون وأصحاب الأيكة قوم شعيبٍ عليه السّلام متعاصرين.

بناءً على ما سبق نتبيّن أنّ كلّ آيةٍ كريمة من الآيتين الكريمتين الأوليين تشير إلي ثلاثة أقوام مرتّبين تأريخيّا. وهؤلاء المكذّبون أقوام نوحٍ وهودٍ وموسى عليهم السّلام في الآية الكريمة الأولى. وأقوام صالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ عليهم السّلام في الآية الكريمة الأخرى.

وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا
مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

وما ينظر هؤلاء : وما ينتظر هؤلاء(١).

إلاّ صيحةً واحدة : هي نفخة القيامة تحلّ بهم العذاب(٢).

---

(١) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٤. ، والجلالين.

(٢) الجلالين.

مالها من فواق : مالها من فتور ولا انقطاع[1] وراحة وتمهّل[2] وأصل الفواق ما بين الحلبتين من الوقت لأنّها تُحلَب ثمّ تترك سويعةً يرضعهاالفصيل لِتدِرّ ثمّ تُحلَب، وما بين قبضتي الحالب للضَّرع من وقتٍ إذا فتح يده، وما يعود من اللّبن بعد رَضاعٍ أو حلاب[3].

وقالوا ربّنا عجّل لنا قطّنا : القطّ في كلام العرب الصّحيفة المكتوبة[4] وأصل القطّ الشّيء المقطوع عرضاً، كما أنه القدّ هو المقطوع طولاً. والقطّ النّصيب المفروز كأنّه قَطّ أي أُفرز[5] قال ابن عبّاس : سألوا الله تعالى أن يعجّل لهم نصيبهم وحظّهم من العذاب قبل يوم القيامة[6].

وما ينتظر كفّار مكّة المصرّون على الكفر والتّكذيب إلاّ صيحةً واحدةً حينما ينفخ إسرافيل عليه السّلام في الصّور النّفخة الممتدّة الّتي ليس لها انقطاعٌ ولا فتور. ويصحّ أن تكون النّفخةَ الّتي يموت بإذن الله تعالى الخلائقُ بسببها إيذاناً بقيام السّاعة.

والعجيب في كفّار مكّة أنّهم لا يزدادون في الكفر إلاّ تمادياً، وفي العناد إلاّ إيغالا. إنّهم رغم كلّ هذا التّهديد والوعيد يستهزئون ويستعجلون العذاب ويقولون : يا ربّنا عجّل لنا نصيبنا من العذاب وحظّنا من العقاب قبل قيام السّاعة ومجيء يوم القيامة. ومعروفٌ أنّ كفّار مكّة لا يؤمنون بالبعث والنّشور والحساب والجزاء.

وهذا الموقف من كفّار مكّة يذكّرنا بالاستهزاء ذاته الّذى أومأ إليه قول الحقّ جلّ وعلا[7] : ﴿وإذ قالوا اللّهمّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السّماء أو ائتنا بعذابٍ أليم﴾.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٤.

(٢) المعجم الوسيط : «فوق».

(٣) انظر لسان العرب : «فوق».

(٤) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٥.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «قطّ» ٢/ ٥٢٦.

(٦) انظر تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٥ وتفسير ابن كثير ٧/ ٤٨.

(٧) سورة الأنفال ٣٢.

(٢)

« لك يا محمّد في الصّبر أُسوةٌ حسنةٌ
في كوكبةٍ من النّبيّين الكرام، عليهم
من الله تعالى أزكى
الصّلاة وأتمّ السّلام»
الآيات (١٧ ـ ٤٨)

اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾
إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ
مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

ذا الأيد : ذا القوّة في طاعة الله(١).

إنّه أوّاب : الأوّاب التوّاب الّذى يئوب إلى طاعة الله ويرجع إليها(٢).

يسبّحن بالعشيّ : يسبّحن مع داود بالعشيّ وذلك من وقت العصر إلى اللّيل(٣).

والإشراق : حين تشرق الشّمس وتَضْحَى(٤).

والطّير محشورة : محبوسةً في الهواء(٥) ومجموعةً له. ذُكِر أنّه ﷺ كان إذا سبّح أجابته الجبال واجتمعت إليه الطّير فسبّحت معه(٦) وممّا أعطاه الله تعالى من الفضائل الزّبورُ وحُسْنُ الصّوت، فلم يُعْطَ أحدٌ مثل صوته. وحُكِي من آثار صوته أشياء عجيبة، منها تسخير الجبال والطّير للتّسبيح معه(٧).

كلٌّ له أوّاب : كلّ ذلك له مطيعٌ رجّاعٌ إلى طاعته وأمره(٨) بالتّسبيح(٩).

---

(١) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٦.

(٢) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٧.

(٣) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٧.

(٤) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٧.

(٥) تفسير ابن كثير ٧/ ٥٠.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٨٧.

(٧) تهذيب الأسماء واللّغات للإمام النّووى ١/ ١٨١.

(٨) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٧

(٩) الجلالين

وشددنا ملكه : قويناه بالحرس والجنود(١).

وآتيناه الحكمة : الإصابة في الأمور(٢).

وفصل الخطاب : معرفة الأحكام وإتقانها وتسهيلها(٣) والبيان الشّافي(٤).

اصبر يا محمّد على ما يقول كفّار مكّة المستهزئون بالعذاب المستعجلون له واذكر أحد عبادنا المصطفين الأخيار الّذين صبروا حتّى جاءهم النّصر من الله تعالى. إنّه نبيّ الله تعالى داود عليه السّلام ذو القوّة في عبادة الله تعالى. إنّه توّابٌ يئوب دائماً إلى طاعة الله تعالى.

إنّا سخّرنا الجبال معه يسبّحن إذا سبّح الله تعالى آخر النّهار وأوّله، من وقت العصر إلى اللّيل، ومن وقت طلوع الشّمس إلى الزّوال، وسخّرنا الطّير محبوسةً في الهواء يسبّحن معه إذا سبّح الله تعالى، فلا تستطيع الطّير أن تتخطّاه إذا سمعته يسبّح الله تعالى، بسبب ما آتاه الله تعالى من حسن الصّوت، كما لا تستطيع الجبال إلاّ أن تتفاعل مع تسبيحه وتتجاوب معه. وكلّ ذلك يتمّ بإذن الله تعالى وبفضله.

إنّ كلاًّ من الجبال والطّير رجّاعٌ لطاعته وأمره بالتّسبيح.

وقد قوّينا ملكه بالجنود والحرس وما إليهما من مقوّمات الملك، وآتيناه العقل الرّشيد، والرّأي السّديد، والبصيرة النّيّرة، في حلّ المعضلات، والحكم في القضايا. وآتيناه القول الفصل، والبيان البليغ، في معالجة الشّجون، والتّعبير عن الشّئون.

وإنّ قمّة الفضل من الله تعالى على داود عليه السّلام أن أكرمه الله تعالى بنعمة النّبوّة. إنّ داود عليه السّلام من آل إبراهيم عليه السّلام الّذين آتاهم الله تعالى الكتاب والحكم والنّبوّة والملك العظيم. لقد آتى الله تعالى داود عليه السّلام الزّبور، وهو أحد الكتب السّماويّة الأربعة السّابقة الّتى جاء ذكرها في القرآن الكريم.

وداود عليه السّلام من ذرّيّة إسحاق بن إبراهيم عليهما السّلام.

---

(١) الجلالين وتفسير الطّبري ٢٣/ ٨٨.

(٢) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ١٨١.

(٣) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ١٨١.

(٤) الجلالين.

وقد جاء في الأحاديث الصّحاح أنّ أحبّ الصّيام والصّلاة صيام داود عليه السّلام وصلاته. ومنها الحديث الّذى رواه عبدالله بن عمرو قال: قال لي رسول الله ﷺ: أحبّ الصّيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويُفْطِر يوماً، وأحبّ الصّلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف اللّيل ويقوم ثلثه وينام سدسه(١).

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟
ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ
خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً
وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ
لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ
مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ
۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ
﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ
بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

الخصم: مصدر خصمته أي نازعته خصما. يقال: خاصمته وخصمته مخاصمةً وخِصاما. ثمّ سُمِّيَ المخاصِم خصما، واستعْمِل للواحد والجمع وربّما

(١) فتح البارى ٦/ ٤٥٥ حديث رقم ٣٤٢٠ وانظر الحديث رقم ٣٤١٧و٣٤١٨ ص٥٥٣ وحديث رقم ٣٤١٩ ص٥٥٤

ثُنِّي. وأصل المخاصمة أن يتعلّق كلّ واحدٍ بخصم الآخر أي جانبه(١) وقيل إنّه عُنِيَ بالخصم في هذا الموضع ملكان، وخرج في لفظ الواحد لأنّه مصدر لا يُثنّى ولا يُجْمع(٢).

إذ تسوّروا : إذ عَلَوْا وتسلّقُوا(٣).

المحراب : مقدّم كلّ مجلسٍ وبيتٍ وأشرفه(٤) وبه سُمِّيَ صدر المسجد(٥).

إذ دخلوا على داود ففزع منهم : إنّما كان ذلك لأنّه كان في محرابه أي مسجده حيث منعا الدّخول عليه من الباب لتخصيصه ذلك الوقت للعبادة(٦).

خصمان : خبر لمبتدأ محذوف تقديره نحن(٧).

بغي بعضنا على بعض: تعدّى أحدنا على صاحبه بغير حقّ(٨).

فاحكم بيننا بالحقّ : فاقض بيننا بالعدل(٩).

ولا تشطط : ولا تَجُرْ ولا تُسْرِف في حكمك بالميل منك مع أحدنا على صاحبه، وفيه لغتان أشطّ وشطّ(١٠).

واهدنا الى سواء الصّراط : وأرشدنا إلى قصد الطّريق المستقيم(١١).

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «خصم» ١/ ١٩٩.

(٢) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٩.

(٣) لسان العرب : «سور».

(٤) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٩.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «حرب» ١/ ١٤٧.

(٦) انظر تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٠ وتفسير ابن كثير ٧/ ٥٢ والجلالين وفي ظلال القرآن ٥/ ٣٠١٨.

(٧) الجدول في اعراب القرآن وصرفه ١١/ ٨٨ وتفسير الطّبري ٢٣/ ٩٠ ولسان العرب «خصم».

(٨) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٠.

(٩) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٠.

(١٠) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٠.

(١١) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٠.

إنّ هذا أخى : أي على دينى(١).

نعجة : النّعجة الأنثى من الضّأن(٢).

فقال أكفلنيها : اجعلنى كفيلاً لها(٣) وانزل عنها لى وضمّها إليّ(٤).

وعزّنى في الخطاب : ظلمنى وقهرنى، وصار أعزّ منّى في مخاطبته إيّاي، لأنّه إن تكلّم فهو أبين منّى، وإن بطش كان أشدّ منّى(٥).

من الخلطاء : من الشّركاء(٦).

ليبغى بعضهم على بعض : ليتعدّى بعضهم على بعض(٧).

وقليلٌ مّا هم : الواو عاطفة. قليل: خبرٌ مقدّم مرفوع. ما لتأكيد القلّة. هم: ضمير منفصل مبتدأ مؤخر(٨).

وظنّ داود أنّما فتنّاه : وعلم داود أنّما ابتليناه(٩).

وخرّ : خرّ سقط سقوطاً يُسْمَع معه خرير. والخرير يقال لصوت الماء والرّيح وغير ذلك ممّا يَسْقُطُ من عُلُوّ(١٠).

راكعاً : ساجداً لله(١١) وفي هذا تنبيهٌ إلى أنّ ذلك الخرير كان تسبيحاً بحمد

---

(١) الجلالين.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «نعج» ٢/ ٦٤٤.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «كفل» ٢/ ٥٦٢.

(٤) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩١.

(٥) انظر تفسير الطّبري ٢٣/ ٩١.

(٦) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٢.

(٧) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٢.

(٨) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٩٠ وتفسير الطّبري ٢٣/ ٩٢.

(٩) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٢.

(١٠) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «خرّ» ١/ ١٩١.

(١١) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٢.

الله لا بشيء آخر، وتنبيهٌ على أنّ استعمال الخرّ يعنى اجتماع أمرين: السّقوط وحصول الصّوت بالتّسبيح(١).

وأناب : الإنابة إلى الله تعالى الرّجوع إليه بالتّوبة وإخلاص العمل(٢).

وإنّ له عندنا لزُلفى : وإنّ له عندنا للقربة منّا يوم القيامة(٣).

وحسن مآب : وحسن مرجعٍ ومنقلبٍ ينقلب إليه يوم القيامة(٤).

يا داود إنّا جعلناك خليفةً في الأرض : إنّا استخلفناك في الأرض من بعد من كان قبلك من رسلنا حكماً بين أهلها(٥).

بالحقّ : بالعدل والإنصاف(٦).

فيضلّك عن سبيل الله : فيميل بك اتّباعك هواك، في قضائك على العدل والعمل بالحقّ، عن طريق الله الّذى جعله لأهل الإيمان به(٧).

بما نسوا : الباء للسّببيّة(٨).

وهل أتاك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم نبأ الملكين الاثنين اللّذين ظهرا في صورة الخصمين، إذ تسلّقا حائط محراب داود عليه السّلام. لقد دخلا عليه مسجده ومكان خلوته للعبادة في الوقت الّذى خصّصه عليه السّلام للعبادة وذكر الله تعالى، ففزع منهم بسبب تسوّر المحراب والدّخول عليه في غير الوقت المخصّص للقضاء بين النّاس. طمأن الملكان داود عليه السّلام وقالا له لا تخف من

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «خرّ» ١/ ١٩٢.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «نوب» ٢/ ٦٥٧.

(٣) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٧.

(٤) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٧.

(٥) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٧.

(٦) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٧.

(٧) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٧.

(٨) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٩٢.

دخولنا عليك من دون استئذان وفي وقت خلوتك للعبادة. نحن شخصان خصمان ظلم أحدنا الآخر فاحكم بيننا بالحقّ، واقض بالعدل، ولا تُسْرف في حكمك، ولا تَمِلْ في قضائك لواحدٍ منّا، وأرشدنا إلى قصد السّبيل، وسواء الصّراط.

قال أحد الخصمين: إنّ هذا أخي في دين الله تعالى، له تسعٌ وتسعون نعجةً، ولي نعجةٌ واحدةٌ فقط، فقال اجعلني كفيلاً على نعجتك، وضمّها إلى نعاجي، كي تتم بها المائة! لقد غلبني أخي هذا بسلطانه، وظلمني بلسانه، وقهرني ببيانه.

بادر داود عليه السّلام إلى الحكم على الخصم الآخر الّذي يبدو للوهلة الأولى أنّه ظالمٌ دون أن يتيح له عليه السّلام الفرصة كي يبيّن وجهة نظره، فقد يكون هو المظلوم وليس الظّالم. قال داود عليه السّلام للخصم الشّاكي جازماً: لقد ظلمك خصمك بسؤاله إيّاك ضمّ نعجتك الواحدة إلى نعاجه التّسع والتّسعين، وإنّ كثيراً من الشّركاء ليبغي بعضهم على بعض ويظلم بعضهم بعضاً، إلاّ الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله ﷺ، وعملوا الصّالحات. وما أقلّ هؤلاء الشّركاء الّذين يَعْدِلون ولا يظلمون، يُنْصِفون ولا يجورون.

أيقن داود عليه السّلام أنّا ابتليناه بالملكين واختبرناه بالخصمين، وأدرك أنّه تجاوز الخصم الآخر ولم يسأله وحكم عليه قبل أن يعرف رأيه في المسألة، ووجهة نظره في الأمر. بادر داود عليه السّلام إلى الرّجوع إلى ربّه عزّ وجلّ فسأله جلّ وعلا أن يغفر له ذنبه، وسقط ساجداً على وجهه، مستغفراً، مسبّحاً بحمد ربّه عزّ وجلّ، تائباً إلى الله تعالى آيباً منيبا.

لقد كان ربّ العزة والجلال عند حسن ظنّ عبده داود عليه السّلام به، فغفر له ذنبه وتجاوزه الخصم الآخر تماماً، وإصدار الحكم ضدّه.

وإنّ لداود عليه السّلام عند ربّه جلّ وعلا منزلةً رفيعةً في الحياة الأولى، وحُسْنَ مآبٍ في الحياة الآخرة في جنّات النّعيم.

ونادى الحقّ جلّ وعلا عبده داود عليه السّلام وقال له: يا داود إنّا استخلفناك في الأرض، ومكّنّا لك فيها، فاحكم بين النّاس بالحقّ، ولا تتّبع هوى النّفس،

فيضلّك عن سبيل الله تعالى، والطّريق الموصل إلى مرضاته عزّ وجلّ، وينحرف بك عن سواء السّبيل، إلى مهاوى الرّدى.

إنّ الّذين يضلّون عن سبيل الله تعالى، ويحكمون بغير ما أنزل عزّ وجلّ، وينساقون وراء الهوى، ويؤثرون حكم الجاهليّة الجهلاء، ويتنكّبون أحكام الله تعالى، لهم يوم القيامة عذابٌ شديدٌ في نار جهنّم، بسبب نسيانهم يوم الحساب، وإنكارهم البعث وإتيانهم المنكرات، وتركهم عمل ما ينفعهم من صالحات يريدون بها وجه الله تعالى.

وبشأن السّجدة في قول الحقّ جلّ وعلا(١): ﴿ وظنّ داود أنّما فتنّاه فاستغفر ربّه وخرّ راكعاً وأناب﴾ جاء في صحيح البخاري(٢) عن عكرمة عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: ليس : ص، من عزائم السّجود، ورأيت النّبيّ ﷺ يسجد فيها.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾

كتابٌ أنزلناه إليك مبارك : وهذا القرآن كتابٌ أنزلناه إليك يا محمّد مبارك(٣).

---

(١) سورة ص ٢٤.

(٢) فتح الباري ٦/ ٤٥٦ حديث رقم ٣٤٢٢ وانظر فتح الباري ٦/ ٤٥٦ حديث رقم ٣٤٢١ وفتح الباري ٨/ ٢٩٤ حديث رقم ٤٦٣٢و٨/ ٥٤٤ الحديثين رقم ٤٨٠٦و ٤٨٠٧.

(٣) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٨.

وما خلقنا السّماء والأرض وما بينهما عبثاً ولعبا، ذلك ظنّ الّذين كفروا الّذين يرون الحياة الدّنيا نهاية المطاف، ولا يؤمنون بالبعث والحساب والجزاء، فويلٌ للّذين كفروا من نار جهنّم الّتى يدخلونها ويخلدون فيها، وقبحٌ لهم لاختيارهم سوء المصير. وفي مقابل هؤلاء الكافرين هنالك المؤمنون الّذين يشفقون من السّاعة ويجتهدون في تحقيق الهدف الّذى خلقهم الله تعالى من أجله، وهو عبادة الله تعالى، بالمعنى الواسع للعبادة في الإسلام، بأن يراد وجه الله تعالى وحده دون سواه من كلّ الأعمال الصّالحة.

وبناءً على اختلاف المؤمنين والكافرين في الاعتقاد والعمل يقرّر السّياق أنّ الحقّ جلّ وعلا لا يسوّى بين الّذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين الّذين كفروا وعملوا السّيّئات وأفسدوا في الأرض بعد إصلاحها بالنّبيّين وعباد الله تعالى الصّالحين. كما لا يسوّى عزّ وجلّ بين المؤمنين الّذين اتّقوا الله تعالى بعمل الصّالحات واجتناب السّيّئات وبين الكفرة في الاعتقاد الفجرة في الأعمال.

إنّ المتّقين الأبرار يتفكّرون في خلق السّماوات والأرض وما بينهما، ويعلمون أنّ الحقّ جلّ وعلا ما خلق كلّ ذلك باطلاً سبحانه، ويعلنون ذلك على رءوس الأشهاد. وإنّ القرآن الكريم هو الكتاب العزيز المشتمل على أعظم الآيات وأبلغ العظات. وها هو ذا السّياق يقرّر أنّ هذا القرآن الكريم كتابٌ أنزله الله تعالى إلى المصطفى ﷺ مبارك، تشمل بركته بإذن الله تعالى كلّ من اتّصل منه بسبب. وقد أنزل الحقّ جلّ وعلا هذا الكتاب العزيز ليتدبّر النّاس آياته البيّنات، ويتأمّلوا حججه البالغات، وليتذكر أولو العقول الرّاجحة مواعظه البليغة، وحكمه العميقة، ودروسه العظيمة، كي يفوزوا بالحياة الطّيّبة فى الأولى والآخرة.

إنّ المهتدين بهذا الكتاب العزيز يجمعون بفضل الله تعالى بين القلوب السّليمة الّتي تؤثّر فيها المواعظ، وبين العقول الرّاجحة الّتى لا يخفى عليها أحسن الحديث فتطيل تأمّله، وتديم تدبّره، وتهتدى بنوره.

وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ۖ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

نعم العبد : نعم العبد سليمان(١).

إنّه أوّاب : إنّه رجّاع إلى طاعة الله توّابٌ إليه ممّا يكرهه منه(٢).

بالعشيّ : من وقت العصر إلى اللّيل(٣).

الصّافنات : جمع الصّافن من الخيل، والأنثى صافنة(٤) وصَفَنَت الدّابّة تَصْفِنُ صُفوفاً : قامت على ثلاث وثَنَتْ سُنْبُكَ يدها الرّابع(٥) والسُّنبك : طرف الحافر وجانباه من قُدُم، وجمعه سنابك(٦) والصّافن من الخيل: القائم علي ثلاث قوائم، وقد أقام الرّابعة على طرف الحافر(٧).

الجياد : السّراع، واحدها جواد(٨).

إنّي أحببت حبّ الخير : إنّي أحببت حبّاً للخير. ثمّ أضيف الحبّ إلى

---

(١) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٨.

(٢) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٨.

(٣) تفسير الطّبري ٢٣/ ٨٧.

(٤) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٨.

(٥) لسان العرب : «صفن».

(٦) لسان العرب : «سنبك».

(٧) الصّحاح للجوهري : «صفن».

(٨) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٩.

الخير. وعَنَى بالخير في هذا الموضع الخيل. والعرب فيما بلغني تسمّي الخيل الخير والمال أيضاً يسمّونه الخير(١) حبّ : مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنّه اسم مصدر(٢) أو هو مفعولٌ به عامله أحببت بتضمينه معنى آثرت أو أردت. وعن بمعنى على(٣).

عن ذكر ربّي : حتّى سهوت عن ذكر ربّي وأداء فريضته. وقيل إنّ ذلك كان صلاة العصر(٤).

حتّى توارت بالحجاب : حتّى توارت الشّمس بالحجاب(٥) أي حتّى غابت(٦).

فطفق : فجعل(٧) وأخذ(٨) وأقبل(٩).

مسحاً : مفعولٌ مطلق لفعلٍ محذوف أي يمسحها مسحاً(١٠) أو هو مصدرٌ في موضع الحال(١١) أي يضرب سوقها وأعناقها. فالمسح القطع(١٢) بالسّيف(١٣).

---

(١) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٩.

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٩٦.

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٩٦ هامش ٢.

(٤) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٩.

(٥) تفسير الطّبري ٢٣/ ٩٩.

(٦) تفسير الطّبري ٢٣/ ١٠٠.

(٧) تفسير الطّبري ٢٣/ ١٠٠.

(٨) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «طفق» ٢/ ٣٩٧.

(٩) معاني القرآن للفرّاء ٢/ ٤٠٥.

(١٠) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٩٦.

(١١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٩٦ هامش ٣.

(١٢) معاني القرآن للفرّاء ٢/ ٤٠٥.

(١٣) الجلالين.

بالسّوق : جمع السّاق[1].

والأعناق : جمع العنق بمعنى الرّقبة[2] أي ذبحها وقطع أرجلها تقرّباً إلى الله تعالى، حيث اشتغل بها عن الصّلاة، وتصدّق بلحمها، فعوّضه الله تعالى خيراً منها وأسرع، وهي الرّيح تجرى بأمره كيف شاء[3] غدوّها شهرٌ ورواحها شهر، فهذا أسرع وخيرٌ من الخيل[4] وقد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيّما إذا كان غضباً لله عزّ وجلّ، بسبب أنّه اشتغل بها حتّى خرج وقت الصّلاة[5].

ووهب الله تعالى لداود عليه السّلام ابنه سليمان عليه السّلام الّذى قال الله تعالى عنه[6] : ﴿وورث سليمان داود﴾ أي نبوّته وعلمه وحكمته دون سائر أولاد داود. وكان له عليه السّلام اثنا عشر ابناً[7] نعم العبد سليمان بن داود عليهما السّلام. إنّه كثر الرّجوع إلى طاعة ربّه عزّ وجل والتّوبة إليه ممّا يكرهه منه.

اذكر يا محمّد إذ عُرِض على سليمان عليه السّلام من وقت العصر إلى اللّيل الخيل الأصيلة الّتى يقوم الواحد منها لأصالته على ثلاث قوائم ويَثْنى طرف حافر يده الرّابعة ويقوم عليه، والخيل السّراع وقت الحاجة لأن تسرع، كرّاً وفرّاً وصيداً ونزهة.

لقد شغل استعراض الخيل سليمان عليه السّلام عن صلاة العصر بسبب حبّه عليه السّلام للخيل حبّاً جمّا. قال عليه السّلام نادماً على تقصيره في جنب الله تعالى: لقد أحببت الخيل حبّاً شغلنى عن ذكر ربّى عزّ وجلّ وألهانى عن أداء صلاة العصر في وقتها حتّي توارت الشّمس بالحجاب، وغابت وراء الأفق، وأقبل اللّيل.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٣/ ١٠٠.

(٢) المعجم الوسيط : «عنق».

(٣) الجلالين وانظر تفسير الطّبري ٢٣/ ١٠٠و١٠٣

(٤) تفسير ابن كثير ٧/ ٥٧.

(٥) تفسير ابن كثير ٧/ ٥٧.

(٦) سورة النّمل ١٦.

(٧) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ٢٣٣.

واصل سليمان عليه السّلام حديثه قائلاً لجنوده وحرسه وحاشيته ردّوا عليّ الخيل الّتي شغلتني عن صلاة العصر ففعلوا. أخذ عليه السّلام يقطع بالسّيف سوق الخيل وأعناقها تقرّباً إلى الله تعالي، وندماً منه عليه السّلام على تقصيره في جنب الله تعالى، وتصدّق بلحمها ابتغاء مرضاة الله تعالى.

لقد رضى الله تعالى عن سليمان بن داود عليهما السّلام وعوّضه الله تعالى خيراً منها وأسرع، وهي الرّيح الرّخاء اللّيّنة الطّيّبة الّتي سخّرها عزّ وجلّ له فهي تجرى بأمره حيث شاء عليه السّلام، والّتى تقطع بالغداة مسيرة شهرٍ، وبالعشيّ مسيرة شهرٍ آخر للقوافل آنذاك.

وهكذا ابتلى الله تعالى سليمان عليه السّلام بحبّ الخيل حتّى فاتته صلاة العصر فندم وكفّر وتاب واستغفر. قبل الحقّ جلّ وعلا توبة سليمان عليه السّلام النّصوح، وعوّضه الرّيح الّتى هي خيرٌ من الخيل وأسرع.

ويلاحظ أنّ سليمان عليه السّلام كان محبّاً للخيل الّتي كان يقتنيها ويُعْنَى بها لأنّها خيلٌ يوظّفها عليه الصّلاة والسّلام للجهاد في سبيل الله تعالى. ومع أنّ هذه الخيل يستعرضها عليه السّلام آنذاك من أجل تلك الغاية النّبيلة فإنّها لمّا كانت هي الّتى شغلته عن أداء الصّلاة في وقتها، فقد بادر عليه الصّلاة والسّلام إلى عقرها والتّصدّق بلحمها ابتغاء وجه الله تعالى.

وَلَقَدْ فَتَنَّا

سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ
لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾
فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ
كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا
عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ
مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

وألقينا على كرسيّه جسدا : جاء في تفسير القرطبى(١) : «وحكى النّقّاش وغيره : إنّ أكثر ما وطىء سليمان جواريه طلباً للولد، فوُلِدَ له نصف إنسان، فهو كان الجسد الملقى على كرسيّه، جاءت به القابلة فألقته هناك» روى البخاري(٢) عن أبي هريرة عن النّبيّ ﷺ قال قال سليمان بن داود : لأطوفنّ اللّيلة على سبعين امرأةً تحمل كلّ امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله. فقال له صاحبه (وفي رواية أخرى للحديث(٣) : فقال له الملك) : إن شاء الله. فلم يقل، ولم تَحْمِلْ شيئاً إلاّ واحداً ساقطاً أحد شِقّيه. فقال النّبيّ ﷺ : لو قالها لجاهدوا فى سبيل الله. قال شعيب وابن أبى الزِّناد: «تسعين» وهو أصحّ.

ويقول ابن حجر(٤) : «في رواية شعيب: فلم يحمل منهنّ إلاّ امرأةٌ واحدةٌ جاءت بشقّ رجل. وفي رواية أيّوب عن ابن سيرين: ولدت شقّ غلام. وفي رواية هشام عنه: نصف إنسان. وهي رواية معمر. حكى النّقّاش في تفسيره أنّ الشّقّ المذكور هو الجسد الّذى ألقى علي كرسيّه».

(١) ص ٥٦٤٥.

(٢) فتح الباري ٦٧/٤٥٨ حديث رقم ٣٤٢٤.

(٣) فتح الباري ٦/ ٤٦١

(٤) فتح الباري ٦/ ٤٦١

لا ينبغى لأحد من بعدى: لا يكون لأحد من بعدى[1] من البشر مثله. وبهذا المعنى وردت الأحاديث الصحيحة من طرقٍ عن رسول الله ﷺ. ومنها الحديث الّذى رواه البخاريّ ومسلم والنّسائي[2].

روي البخاريّ عند تفسيره هذه الآية الكريمة[3] عن أبى هريرة عن النّبيّ ﷺ قال: إنّ عفريتاً من الجنّ [4]تفلّت عليّ[5] البارحة[6] ـ أو كلمةً نحوها ـ ليقطع عليّ الصّلاة، فأمكننى الله منه. وأردت أنأ ربطه إلي سارية[7] من سوارى المسجد، حتّى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخى سليمان: ربّ هب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى[8].

رخاءً : ليّنة[9] وطيّبة[10].

حيث أصاب : حيث أراد[11] وشاء[12].

والشيّاطين : وسخّرنا له الشيّاطين فسلّطناه عليها[13]. والشّيطان من زاد

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٠٢.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٧/ ٦١و٦٢.

(٣) فتح البارى ٨/ ٥٤٦ حديث رقم ٤٨٠٨و٦/ ٤٥٧ حديث رقم ٣٤٢٣.

(٤) العفريت من الجنّ هو العارم الخبيث فتح ٦/ ٤٦٠.

(٥) تفلّت عليّ بتشديد اللّام أي تعرّض لي فلتةً أي بغتة. فتح ٦/ ٤٥٩.

(٦) البارحة أي اللّيلة الخالية الزّائلة. فتح ٦/ ٤٥٩.

(٧) السّارية : الأسطوانة. لسان العرب «سرا» أي العمود من أعمدة المسجد.

(٨) الآية الكريمة : ﴿قال ربّ اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحدٍ من بعدى. إنّك أنت الوهّاب﴾.

(٩) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٠٣ والجلالين ومفردات الرّاغب الأصفهاني : «رخا» ١/ ٢٥٤.

(١٠) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٠٣و١٠٤.

(١١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٠٣ والجلالين.

(١٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٠٣.

(١٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٠٤

في الخُبْث من الجنّ(١).

كلّ بنّاء : البناة من الشّياطين يصنعون محاريب وتماثيل(٢).

وغوّاص : الغاصة يستخرجون له الحُليّ من البحار(٣).

وآخرين : معطوف على كلّ بناء. وكلّ بدل من الشيّاطين بعض من كلّ منصوب(٤).

مقرّنين : مشدودين(٥).

في الأصفاد : الأصفاد جمع الصَّفْد بسكون الفاء والصَّفَد بفتح الفاء، وهي القيود أو الأغلال(٦) أو السّلاسل(٧). وتنفرد الأغلال دون سائر القيود بأنّها تجمع يد الأسير إلى عنقه، ويقال لها جامعةٌ أيضاً(٨).

فامنن أو أمسك بغير حساب: فأعط من شئت ما شئت من الملك الّذى آتيناك وامنع من شئت منه ما شئت، لا حساب عليك في ذلك(٩).

وإنّ له عندنا لزلفى : وإنّ لسليمان عندنا لقربةً بإنابته إلينا وتوبته وطاعته لنا(١٠) والزّلفى : المنزلة والحُظوة(١١).

---

(١) فتح البارى ٦/ ٤٦٠.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٠٤

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٠٤

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٩٩.

(٥) الجلالين.

(٦) انظر لسان العرب: «صفد» وتفسير الطّبرى ٢٣/ ١٠٤ .

(٧) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٠٤

(٨) انظر لسان العرب: «غلل».

(٩) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٠٥

(١٠) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٠٥

(١١) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «زلف» ١/ ٢٨٣ والحظوة بضمّ الحاء وكسرها.

وحسن مآب: وحسن مرجع ومصير في الآخرة(١).

ولقد ابتلينا سليمان بن داود عليهما السّلام واختبرناه وألقينا على كرسيّه جسداً لشقّ إنسان من صُلبه، وضعته القابلة بعد ولادته على كرسيّ سليمان عليه السّلام. إنّه عليه السّلام كان حريصاً على الجهاد في سبيل الله تعالى فأقسم ليطوفنّ ليلةً من اللّيالي على نسائه السّبعين أو الأكثر أو الأقل(٢) فتلد كلّ واحدة منهنّ ولداً ذكراً يجاهد في سبيل الله تعالى. ونسي عليه السّلام أن يقول: إن شاء الله، رغم تنبيه صاحبه الملَك له عليه السّلام. شاء الله تعالى أن تحمل واحدةٌ فقط من نسائه بشقّ جسدٍ أو نصف إنسان.

فطن سليمان عليه السّلام حينما رأى الجسد على كرسيّه في تلك الحال إلى أنّه قصّر في جنب الله فرجع إلى الله تعالى بالتّوبة النّصوح وبالاستغفار. وقد جاء في سورة الكهف(٣) قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ولا تقولنّ لشيءٍ إنّي فاعلٌ ذلك غداً. إلاّ أن يشاء الله. واذكر ربّك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينِ ربّي لأقرب من هذا رشداً﴾.

دعا سليمان عليه السّلام ربّه عزّ وجلّ أن يغفر له، وأن يهب له ملكاً لا يكون لأحدٍ من البشر بعده عليه السّلام. إنّه عزّ وجلّ هو الوهّاب الّذي يرزق من يشاء بغير حساب. وقد سخّر سليمان عليه السّلام ملكه القويّ لنشر دين الإسلام في الأرض. ومن الأدلّة على ذلك قصّتُهُ عليه السّلام مع بلقيس ملكة سبأ الّتي انتهى الأمر بدخولها في دين الإسلام مع سليمان عليه السّلام على نحو ما تبيّن من سورة النّمل(٤).

سخّر الله تعالى لسليمان عليه السّلام الرّيح الّتي تجري بأمره عليه السّلام رخاءً ليّنةً طيّبةً سريعةً حيث أراد. والمعروف أنّ الرّيح بطبعها ملتئمةٌ ملتحمةٌ قويّةٌ

---

(١) تفسير الطّبري ٢٣/ ١٠٥

(٢) انظر فتح الباري ٦/ ٤٦٠.

(٣) الآية ٢٣و٢٤.

(٤) قصّة سليمان بن داود عليهما السّلام في سورة النّمل ١٦-٤٤.

سريعة. وقد ذلّلها الله تعالى لسليمان عليه السّلام وسخّرها له. وقد جاء في تسخير الله تعالى الرّيح لسليمان عليه السّلام قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة سبأ[1] : ﴿ولسليمان الرّيح غدوّها شهرٌ ورواحها شهر﴾ إنّ مسير الرّيح من الصّباح إلى الزّوال مسيرة شهر بالقوافل، ومن الزّوال إلى المغرب مسيرة شهر آخر. وإلى كون الرّيح عاصفةً شديدة الهبوب[2] أشار الحقّ جلّ وعلا في سورة الأنبياء[3] بالقول : ﴿ولسليمان الرّيح عاصفةً تجرى بأمره إلى الأرض الّتى باركنا فيها. وكنّا بكلّ شيءٍ عالمين﴾ والأرض الّتى بارك الله تعالى فيها أرض الشّام. وكان ملكه عليه السّلام واسعاً[4].

وسخّر الله تعالى لسليمان عليه السّلام الشّياطين ومردة الجنّ كلّ بنّاءٍ يعمل له ما يشاء من محاريب وتماثيل وأوعيةٍ للأطعمة كالأحواض الّتى يُجْبَى إليها الماء في الضّخامة، وقدور لطبخ اللّحم مثل الجبال ضخامةً ورسوخاً فلا تحرّك ولا تُنْقَل. وإلى هذه الأعمال من البناء والنّحت أشار الحقّ جلّ وعلا في سورة سبأ[5] في القول: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفانٍ كالجواب وقدورٍ راسيات﴾ كما سخّر الله تعالى لسليمان عليه السّلام من هؤلاء الشّياطين كلّ غوّاصٍ يغوص في أعماق البحار لاستخراج اللّؤلؤ وأنواع الحليّ. وإلى هذه الأعمال من الغوص ونحوه أشار الحقّ جلّ وعلا في سورة الأنبياء[6] في القول: ﴿ومن الشّياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنّا لهم حافظين﴾.

ومن هؤلاء الشّياطين عاصون مكّن الله تعالى سليمان عليه السّلام منهم فهم مشدودون في الأصفاد مقيّدون في الأغلال. ولهؤلاء عذاب الآخرة في النّار. وإلي

---

(١) الآية ١٢.

(٢) تفسير الطّبرى ١٧/ ٤١.

(٣) الآية ٨١.

(٤) انظر ترجمته في تهذيب الأسماء واللّغات للإمام النّووى ١/ ٢٣٢.

(٥) الآية ١٣.

(٦) الآية ٨٢.

ذلك أشار الحقّ جلّ وعلا في سورة سبأ(١) في القول: ﴿ومن يَزِغْ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السّعير﴾.

وقال الحقّ جلّ وعلا لسليمان عليه السّلام: هذا الملك العظيم عطاؤنا لك فامنح من شئت، ممّن رأيت أنّه يستحقّ أن يُعْطَى ويُمْنَح. وامنع من شئت، ممّن رأيت أنّه يستحقّ أن يُحْرَمَ ويُمْنَع، فلا حساب عليك فيما فعلت أيّها النّبيّ الكريم.

وإنّ لسليمان عليه السّلام عند ربّه جلّ وعلا لمنزلةً رفيعةً في الأولى، وحسن مصيرٍ في الآخرة.

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

بنصب: النُّصْب والنَّصَب التّعب(٢) والضّرّ(٣) وذكروا أنّه المرض وما أصابه من العناء فيه. والنُّصب والنَّصَب بمنزلة الحُزْن والحَزَن، والعُدْم والعَدَم، والرُّشد والرَّشَد، والصُّلْب والصَّلَب(٤).

وعذاب: ألم(٥) ذهاب المال والأهل(٦).

---

(١) الآية ١٢.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «نصب» ٢/ ٦٣٨.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٠٦ والجلالين.

(٤) معانى القرآن للفرّاء ٢/ ٤٠٦.

(٥) الجلالين.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٠٦.

اركض برجلك : اضرب برجلك الأرض[١] والرّكض الضّرب بالرِّجْل[٢].

هذا مغتسل : المغتسل الماء الّذى يغتسل به[٣].

وشراب : ماءٌ لتشرب منه[٤].

وذكرى لأولى الألباب : وتذكيراً لأولى العقول ليعتبروا بها فيتعظوا[٥].

ضغثاً : حُزمةً من حشيش أو قُضْبان أو ريحان[٦] وما قام على ساق واستطال ثم جمعته فهو ضِغْثٌ[٧] وكملء الكفّ من الشّجر أو الحشّيش والشّماريخ ونحو ذلك ممّا قام على ساق[٨] والقبضة من كلّ ذلك. وجمعه أضغاث. وبه شُبِّه الأحلام المختلطة الّتى لا يَتَبَيَّن حقائقها[٩].

فاضرب به : زوجتك وكان قد حلف ليضربنّها مائة ضربة لإبطائها عليه يوماً[١٠] فاضرب زوجتك بالضّغث لتبرَّ في يمينك الّتى حلفت بها عليها أن تضربها[١١].

ولا تحنث : في يمينك[١٢] يقال : حَنِث في يمينه إذا لم يف بها[١٣] فأخذ

---

(١) الجلالين و تفسير الطّبرى ٢٣/١٠٧.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني :«ركض» ١/٢٦٧.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى :«غسل» ٢/٤٦٧ والجلالين و تفسير الطّبرى ٢٣/١٠٧.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/١٠٧ والجلالين

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/١٠٧.

(٦) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى: «ضغث» ٢/٣٨٨ والجلالين. والحزمة بضمّ الحاء.

(٧) معانى القرآن للفرّاء ٢/٤٠٦.

(٨) تفسير الطّبرى ٢٣/١٠٨.

(٩) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى: «ضغث» ٢/٣٨٨.

(١٠) الجلالين.

(١١) تفسير الطّبرى ٢٣/١٠٩.

(١٢) تفسير الطّبرى ٢٣/١٠٩.

(١٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى :«حنث» ١/١٧٦.

من الشّجر عدد ما حلف عليه فضرب به ضربةً واحدةً فبرّتْ يمينه(١).

واذكر يا محمّد عبدنا أيّوب عليه السّلام الّذى يُضْرب به المثل في الصّبر حين نادى ربّه عزّ وجلّ شاكياً بثّه وحزنه إلى الله تعالى قائلاً يا ربّى: إنّى مسّني الشّيطان الرّجيم بِضُرٍ في جسدى، وبألمٍ بسبب ذهاب أهلى ومالى. وإنّما نسب الضّرّ والعذاب إلى الشّيطان الرّجيم تأدّباً مع الله تعالى الّذى بيده كلّ شيء. لم يبق سليماً من أيّوب عليه السّلام سوى قلبه المليء بالإيمان ولسانه الّذى يلهج بذكر الله تعالى.

استجاب الله تعالى الّذى يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السّوء دعاء أيّوب عليّه السّلام فأمره القادر على كلّ شيء سبحانه بأن يضرب الأرض برجله. بإذن الله تعالى نبعت بتلك الضّربة الضّعيفةً من أيّوب عليه السّلام المنهك القوى عين ماء. وقيل له عليه السّلام: هذا ماءٌ باردٌ تغتسل منه فيبرأ ظاهرك، وتشرب منه فيبرأ باطنك. وبقدرة الله تعالى الّذى لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء برىء أيّوب عليه السّلام ظاهراً وباطناً وكأنّ شيئاً من الضّرّ لم يمسّه من قبل.

وكما أذهب الحقّ جلّ وعلا الضّرّ بإبراء أيّوب عليه السّلام من مرضه، أذهب عنه العذاب. إنّ ربّ العزّة والجلال يهب لأيّوب عليه السّلام أهله، وكانوا جميعاً قد توفّاهم الله تعالى باستثناء زوجه الطّيّبة الوفيّة الّتى أكرمها الله تعالى فسخّرها لخدمته عليه السّلام حينما تخلّى عنه النّاس. كما وهبه عزّ وجلّ مثل أهله فضلاً منه عزّ وجلّ ونعمة. ويصحّ أن يكون الأهل الّذين وهبهم الله تعالى لأيّوب عليه السّلام قد أحياهم عزّ وجلّ، فلا يعجز الله تعالى شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

لقد وهب الله تعالى أيّوب عليه السّلام أهله ومثلهم معهم رحمةً منه عزّ وجلّ بأيّوب عليه السّلام وتذكرةً يتّعظ بها أولو العقول الرّاجحة الّذين يعلمون أنّ باب الله تعالى هو الّذى ينبغى عليهم أن يطرقوه دائماً وأبداً في السّرّاء والضّرّاء.

وبما أنّ زوج أيّوب عليه السّلام الصّالحة الوفيّة قد تأخّرت يوماً من الأيّام عن

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/١٠٨.

موعدها فحلف عليه السّلام أن يضربها مائة ضربة عقاباً لها، وبما أنّ رحمة الله تعالى قد شملت أيّوب عليه السّلام وآله، فقد شملت كذلك تلك الزّوجة الّتى أَبَتْ وَحْدَها أن تتخلّى عن زوجها. إنّ ربّ العزّة والجلال يأمر أيّوب عليه السّلام أن يأخذ ملء كفّه ما تيسّر له واتّفق من نبات الأرض، وذلك هو الضّغث، وأن يضرب زوجه ضربةً واحدةً بذلك النّبات كي تبرّ يمينه عليه السّلام ولا يحنث، ففعل.

وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾

أولى الأيدى : أهل القوّة على عبادة الله وطاعته(١) وأصحابها(٢).

والأبصار : جمع البَصَر. ويقال لقوّة القلب المدركة بصيرة وبصر. وجمع البصر أبصار، وجمع البصيرة بصائر(٣).

إنّا أخلصناهم بخالصةٍ ذكرى الدّار: ذكرى بدل من خالصة مجرورٍ مثله(٤) ويكون المعنى: إنّا أخلصناهم بخالصةٍ هي ذكرى الدّار(٥) وإنّا خلصناهم بذكرى الدّار. ومعنى الدّار ههنا دار الآخرة. ومعنى أخلصناهم جعلناهم لها خالصين بأن جعلناهم يذكّرون بدار الآخرة ويزهّدون فيها الدّنيا، وذلك شأن الأنبياء. ويجوز أن يكون: يُكثرون ذكر الآخرة والرّجوع إلى الله(٦) والخالص كالصّافى، إلاّ أنّ

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٠٩.

(٢) انظر الجلالين.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى :«بصر» ١/ ٦٢.

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١٠٣ ولسان العرب: «خلص».

(٥) الجلالين.

(٦) لسان العرب: «خلص» وانظر تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٠و١١١.

الخالص هو ما زال عنه شَوْبه بعد أن كان فيه. والصّافي قد يقال لما لا شَوْب فيه[1] وإنّا خصصناهم بخاصّة ذكرى الدّار[2].

الأخيار : جمع خيّر بالتّشديد[3] والخَيْر ضدّ الشّرّ. ورجلٌ خَيْرٌ وخيّر، مشدّد ومخفّف، وامرأةٌ خَيْرةٌ وخيّرة، والجمع أخيار وخيار[4].

واذكر يا محمّد عبادنا، إبراهيم أبا الأنبياء، إسحاق بن إبراهيم، ويعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام، أصحاب القوّة على العبادة، وأهل القدرة على الطّاعة.

إنّا خصصناهم بخاصّةٍ هي ذكر الدّار الآخرة، وجعلناهم خالصين بخالصة لا شائبة فيها تعكّر صفوها، هي ذكر الدّار الآخرة. إنّهم من ناحية شغلتهم الدّار الآخرة، بذكرهم الدّائم لها، وعملهم الصّالح من أجلها، واعتبارهم الدّار الأولى مجرّد طريقٍ موصلٍ إليها. وإنّهم من ناحية أخرى لا ينفكّون يذكّرون الآخرين بتلك الدّار الآخرة، ويحثّونهم على استباق الخيرات من أجل الحصول على النّعيم المقيم في جنّتها، ويزهّدونهم في الحياة الأولى الّتي هي دار العمل ووضع البذور، ويرغّبونهم في الآخرة الّتي هي دار الجزاء وجني الثّمار.

وإنّ هؤلاء النّبيّين من المصطَفَين عند الله تعالى بالنّعم العظيمة، وفي مقدّمة هذه النّعم نعمة النّبوّة، ومن الخيار المشهورين بخَيْريّتهم في أنفسهم وحبّهم الخير للآخرين، فاستحقّوا أن يصطفيهم الله تعالى لتبليغ رسالته، وأداء أمانته، وأن يختارهم ويخصّهم بذكر الدّار الآخرة خالصةً من شوائب الدّنيا، وبتذكير الآخرين بالدّار الآخرة والعمل من أجلها.

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «خلص» ١/ ٢٠٥.

(٢) تفسير الطّبري ٢٣/ ١١٠.

(٣) الجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١٠٣.

(٤) لسان العرب: «خير».

وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾

واذكر يا محمّد إسماعيل بن إبراهيم، واليسع، وذا الكفل عليهم السّلام. إنهّم كسابقيهم من عبادنا المصطفين الأخيار. لقد اصطفيناهم بنعمة النُّبوّة، وهم يستبقون الخيرات، ويحثّون الآخرين على الاستباق إليها. وقد اخترناهم لتبليغ رسالتنا فكانوا خير من بلّغ الرّسالة وأدّى الأمانة.

ونحن في غنىً عن القول إنّ النّعوت الّتى خصّ الله تعالى بها إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السّلام ابتداءً بنعمة النّبوة، قد خصّ بها جلّ وعلا عباده إسماعيل واليسع وذا الكفل عليهم السّلام. وكذلك نحن في غنىً عن القول إنّ من النّعوت الّتى يشترك فيها هؤلاء المصطفون الأخيار القوّة على عبادة الله تعالى والصّبر عليها.

(٣)

« ثـــواب المتّقين في الجنّة عظيـــم، وعـذاب الطّاغين في النّار أليم، وتخاصم أهل النار فيها»

الآيات (٤٩ ـ ٦٤)

هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ

وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

هذاذكر : هذا القرآن الّـذى أنزلناه إليك يا محمّد ذكرٌ لـك ولقومك ذكّرناك وإيّاهم به(١).

متّكئين فيهـا : المتّكىء في العربيّة كلّ من استوى قاعـداً على وطاء متمكّنا. والعامّة لا تعرف المتّكىء إلاّ من مال في قعوده معتمداً على أحد شِقّيه(٢).

قاصرات الطّرف : نساء قصرن أطرافهنّ على أزواجهن(٣).

أتراب : أسنانهنّ واحدة(٤).

ما توعدون : من الكرامة(٥).

ليوم الحساب : لمن أدخله الله الجنّة منكم في الآخرة(٦).

ما له من نفاد : ليس له عنهم انقطاع ولا له فناء(٧).

هذا القرآن الكريم ذكرٌ لك أيّها الرّسول الكريم ولقومك أيّ ذكر، وشرفٌ أيّ

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١١.

(٢) انظر لسان العرب : «وكأ».

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٢.

(٤) الجـــلالين.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٢.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٢.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٢.

شرف، قد ذكّرناك وإيّاهم به ووعظناكم. وإنّ لّلذين اتّقوا الله تعالى بفعل الحسنات واجتناب السّيّئات لحسن مصيرٍ يوم القيامة. جنّاتِ عَدْنٍ وبساتين إقامة، مفتّحةً لهم أبوابها دائماً. إنّ المتّقين حينما يُقْبِلون على الجنّة يجدون أبوابها قد فُتِحت لهم من قبل، تكريماً لهم وحفاوةً بهم. وهذا المعنى هو الّذي أشار إليه قوله تعالى في سورة الزّمر(١) : ﴿وسيق الّذين اتّقوا ربّهم إلى الجنّة زُمَرا. حتّى إذا جاءوها وفُتِحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ والمعنى: وقد فتحت لهم أبوابها من قبل. والله أعلم.

وحينما يدخل المتّقون الجنّة بفضل الله تعالى يجدون فيها الرّاحة التّامّة الّتي عُبّر عنها بالاتّكاء، بمعنى الميل في القعود اعتماداً على أحد الشّقّين، دليلاً على الغاية من التّمكّن والارتياح، كما يجد المتّقون في الجنّة كلّ ما يطلبون ممّا تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين. وقد رُمِز إلى ذلك بالفاكهة الكثيرة والأنواع المختلفة من الشّراب، وكلاهما من التّفكّه والتّلذّذ، ودليلان على تحقّق ما يسبقهما من أمورٍ ضروريّة من طعامٍ وشراب.

وعند هؤلاء المتّقين في الجنّة زوجاتٌ يقصرن نظرهنّ على أزواجهنّ رضاً بهم وسعادةً وبهجة، وهنّ متساوياتٌ في السّنّ.

هذا النّعيم المقيم ما وُعِد به في الحياة الدّنيا المتّقون يوم القيامة في جنّات النّعيم.

وإنّ هذا النّعيم المقيم لهو الرّزق الدّائم من الله تعالى الكريم العظيم، فلا يفنى ذلك الرزّق ولا ينقطع.

---

(١) الآية ٧٣.

هَٰذَا ۚ وَإِنَّ

لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا
فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾
هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾
قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾
قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾
وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ
سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ
ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾

هذا : اسم إشارة مبتدأ. والخبر محذوف تقديره للمؤمنين(١).

فبئس المهاد : فبئس الفراش الّذي افترشوه لأنفسهم جهنّم(٢).

هذا فليذوقوه حميم : هذا مبتدأ خبره حميم(٣) والحميم : الماء الشّديد الحرارة(٤).

وغسّاق : الغسّاق ما يقطر من جلود أهل النّار(٥) وما يسيل من الصّديد والدّم(٦).

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١٠٦.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٣.

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١٠٦.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «حم» ١/ ١٧١.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «غسق» ٢/ ٤٦٧.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٣.

وآخر : وعذابٌ آخر(١).

من شكله : الشّكل الشّبيه(٢).

أزواج : ألوانٌ وأنواع(٣).

هذا فوجٌ : هذا جمع(٤).

مقتحمٌ معكم : الاقتحام توسّط شدّة مخيفة. والمراد هنا النّار(٥).

لا مرحباً بهم : لا اتّسعت بهم أماكنهم(٦) ولا مداخلهم(٧).

إنّهم صالو النّار : إنّهم واردو النّار وداخلوها(٨).

قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم : قال الفوج الواردون جهنّم على الطّاغين(٩).

أنتم قدّمتموه لنا : أنتم قدّمتم لنا سُكْنى هذا المكان وصِلِيَّ النّار بإضلالكم إيّانا ودعائكم لنا إلى الكفر بالله وتكذيب رسله(١٠).

فبئس القرار : فبئس المكان يُسْتَقَرّ فيه جهنّم(١١).

فزده عذاباً ضعفاً في النّار : فأضعف له العذاب في النّار على العذاب الّذى

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٤.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٥.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٤و١١٥.

(٤) الجلالين.

(٥) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى: «قحم» ٢/ ٥٠٩. وتفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٥.

(٦) انظر تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٥ ومعانى القرآن للفرّاء ٢/ ٤١١.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٥ وتفسير القرطبى ٥٦٦٧.

(٨) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٥ وانظر تفسير القرطبى ٥٦٦٨.

(٩) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٥.

(١٠) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٥.

(١١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٥.

هو فيه فيها، وهذا أيضاً من دعاء الأتباع للمتبوعين(١).

وقالوا : الطّاغون. وهم فيما ذُكر أبو جهل والوليد بن المغيرة وذووهما(٢).

كنّا نعدّهم من الأشرار : كنّا نعدّهم في الدّنيا من أشرارنا. وعَنَوْا فيما ذُكِر صهيباً وخبّاباً(٣) وبلالاً وسلمان(٤).

أتخذناهم سخريّا : الهمزة للاستفهام والمراد التّعجّب من موقفهم من المؤمنين في الدّنيا، وتوبيخ أنفسهم لوصفهم المؤمنين بأنّهم الأشرار، والحقيقة أنّ الكافرين هم الأشرار. وأنّ المؤمنين هم الأبرار(٥) سخريّا: مفعول به ثان منصوب(٦) ويقال: سَخرمنه وبه سَخْراً وسَخَراً ومَسْخَراً وسُخْراً بالضّمّ وسُخْرةً وسخْرياً وسُخْرِياً وسُخْرِيّة : هزىء به(٧) والاسم السُّخريّ والسِّخريّ وقرىء بهما(٨) قال مجاهد : اتّخذناهم سخريّاً في الدّنيا فأخطأنا(٩) قال ابن عبّاس : يقول أبو جهل: أين بلال أين صُهيب أين عمّار أولئك في الفردوس! واعجبا لأبى جهل! مسكين، أسلم ابنه عكرمة، وابنته جويرية، وأسلمت أمّه، وأسلم أخوه، وكفر هو. قال :

ونوراً أضاء الأرض شرقاً ومغربا ** وموضع رِجْلى منه أَسْودُ مُظْلِمُ(١٠).

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/١١٦.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/١١٦.

(٣) خبّاب بتشديد الباء الأولى ابن الأرَتّ بتشديد التّاء أحد السّابقين إلى الإسلام وممّن تعذّب في الله تعالى وكان سادس ستّة في الإسلام. وشهد مع النّبيّ ﷺ المشاهد كلّها. ترجمته في تهذيب الأسماء واللّغات ١/١٧٤.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/١١٦ وتفسير القرطبى ٥٦٦٨.

(٥) انظر تفسير الطّبرى ٢٣/١١٦ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١١٠ ومعاني القرآن للفرّاء ٢/٤١١.

(٦) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١١٠.

(٧) لسان العر: «سخر».

(٨) لسان العرب: «سخر».

(٩) تفسير القرطبى ٥٦٦٨

(١٠) تفسير القرطبى ٥٦٦٨.

والقراءة بهمزة الاستفهام لتقرير أنفسهم على هذا على جهة التّوبيخ لها والأسف. أى اتّخذناهم سخريّاً ولم يكونوا كذلك(١).

أم زاغت عنهم الأبصار : أم مالت(٢) عنهم أبصارنا وهم معنا (٣)والزّيغ : الميل عن الاستقامة(٤).

إنّ ذلك لحقٌّ تخاصم أهل النّار : تخاصم خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو(٥) والمعنى : إنّ تخاصم أهل النّار الّذى أخبرتكم به لحقّ(٦).

هذا النّعيم المقيم للمؤمنين المتّقين. وإنّ للطّاغين الكافرين المستهزئين لشرّ مصير وأسوأ عاقبة. جهنّم يدخلونها ويحترقون فيها، فبئس الفراش الّذى افترشوه، لأنفسهم جهنّم. هذا ماءٌ شديد الحرارة فليذوقوه، وهذا صديد أهل النّار فليشربوه. وهذا عذابٌ آخر من جنس الحميم ومن شكل الماء الشّديد الغليان أنواعٌ وأصناف. هذا جمعٌ آخر مقتحِمٌ معكم غمرة النّار اضطراراً، ومحترقٌ بلهبها مثلكم، وهم أتباعكم ومن أضللتموهم عن سواء السّبيل. قال الطّغاة المتبوعون : لا مرحباً بهم ولا اتّسعت لهم أماكنهم في النّار ومنازلهم. إنهّم محترقون بالنّار معنا وذائقو العذاب مثلنا.

قال الأتباع للمتبوعين بل أنتم لا مرحباً بكم وضاقت عليكم الأماكن في النّار ونزلتم أصعبها. أنتم قدّمتم لنا هذا العذاب البئيس والمكان التّعيس بسبب إضلالكم لنا وصرفنا عن طريق الهدى والرّشاد، فبئس المكان يُسْتَقَرُّ فيه جهنّم. وقال الأتباع : يا ربّنا من قدّم لنا هذا العذاب وكان سبباً فيه فزده عذاباً ضعفاًفي النّار، عذاب الضّلال عن طريق الهدى، وعذاب إضلال الآخرين وصدّهم عن

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٠٧.

(٢) الجلالين ولسان العرب: «زيغ».

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٦.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «زيغ» ١/ ٢٨٧.

(٥) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١١٠ وتفسير القرطبى ٥٦٦٩.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٧.

سواء السّبيل.

وقال الطّغاة المتبوعون مالنا لا نرى رجالاً من ضعفاء المسلمين وفقرائهم كنّا نعدّهم في الدّنيا احتقاراً لهم من أشرارانا، ونعتبرهم، استهزاءً بهم، من أراذلنا وسفهائنا.

إنّ احتقارنا اليوم لأنفسنا لا يكاد ينقضي لاعتقادنا آنذاك أنّ المؤمنين الّذين يسيرون في الصّراط المستقيم ضالّون وأنّنا مهتدون. وإنّ عجبنا من عمى بصائرنا وسخف أحلامنا لا يكاد ينتهي لاستهزائنا بالمؤمنين وفرحنا بكفرنا. أتّخذنا المؤمنين المتّقين الفائزين ميدان سخريتنا واستهزائنا، ومجال غمزنا بأعيننا وحواجبنا! لقد تبيّنا خطأنا الآن بعد فوات الأوان، وليس هذا الوقت وقت إبداء التّوبة وإعلان الإيمان. لقد كنّا نحن الأَوْلى بأن نسخر من أنفسنا، ونحتقر عقولنا، ونأسى لبصائرنا الّتي عميت، فزادها الله تعالى عمىً إلى عماها.

ما لنا لا نرى معنا في النّار رجالاً من المؤمنين كنّا نعدّهم في الدّنيا من شرارنا؟ أم زاغت عنهم أبصارنا، ومالت عن رؤيتهم عيوننا؟.

وواضحٌ أنّ السّؤال الّذى بدأ المشركون بإلقائه هو الأهم وهو الّذى كانوا يعتقدونه لأنّهم حينما يكونون في النّار يكون المؤمنون في الجنّة. أمّا السّؤال الآخر الّذى طرحه الكافرون فهو من باب التّمنّى أن يكون المتّقون الأبرار معهم في أعماق نار جهنّم، جرياً على عادة الأشرار في كلّ زمانٍ ومكان. قال عثمان رضي الله عنه: ودّت الزّانية لو زنى النّساء كلّهنّ[1].

إنّ ذلك الخصام بين أهل النّار هو الحقّ الكائن لا مرية فيه ولا شكّ، فعليكم يا كفّار مكّة أن تبادروا إلى اعتناق دين الإسلام، كي تدخلوا الجنّة بإذن الله تعالى بسلام.

---

(١) الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية ٤٦ حققه د. صلاح الدّين المنجّد. دار الكتاب الجديد بيروت لبنان. الطبعة الأولى ١٩٧٦-١٣٩٦هـ.

(٤)

« القرآن الكريم الموحَى به من ربّ العالمين والمشتمل على الكثير من أمور الغيب ذكرٌ للعاملين»

الآيات (٦٥ ـ ٨٨)

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾

قل يا محمّد لكفّار مكّة إنما أنا منذرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ إن لم تؤمنوا وتتّقوا وتعملوا صالحاً. وما مِنْ إلهٍ مستحقٍّ لأن يُفْرَد بالعبادة وحده دون سواه، إلاّ الله تعالى الواحد الّذى لا إله غيره، القهّار لخلقه.

إنّه جلّ وعلا ربّ السّماوات والأرض وما بينهما، خالق كلّ شيءٍ ومدبّره، العزيز المنتقم من الكفّار، الغفّار ذنوب كلّ من تاب وأناب ورجع إلى الله تعالى.

قُلْ هُوَ نَبَؤٌا
عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ
إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ
مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ
يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ
مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ
﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

بالملأ الأعلى : بالملائكة(١).

إذ يختصمون : حين شوورُوا في خلق آدم فاختصموا فيه وقالوا لا تجعل في الأرض خليفة(٢) أي يتجادلون(٣).

إن يوحى إلىّ إلاّ أنّما أنا نذيرٌ مبين : ما يوحى الله إلىّ علم ما لا علم لى به من نحو العلم بالملأ الأعلى واختصامهم في أمر آدم إذ أراد خلقه إلاّ لأنىّ أنّما نذيرٌ مبين(٤).

فإذا سوّيته : فإذا سوّيت خلقه وعدّلت صورته(٥).

ونفخت فيه من روحى : الرّوح جسمٌ لطيفٌ يحيا به الإنسان بنفوذه فيه(٦) وإضافته إلى نفسه إضافة مِلْك وتخصيصه بالإضافة تشريفاً له وتعظيما(٧) وجُعِل الرّوح اسماً للجزء الّذى به تحصل الحياة والتّحرّك واستجلاب المنافع واستدفاع المضارّ(٨).

فقعوا له ساجدين : فبادروا إلى السّجود له(٩) سجود تحيّة(١٠) وإكرام

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٨.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٨.

(٣) لسان العرب : «خصم».

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٨.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٨.

(٦) الجلالين.

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «روح» ١/ ٢٧١.

(٨) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «روح» ١/ ٢٧١.

(٩) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى: «وقع» ٢/ ٦٨٧.

(١٠) الجلالين.

وإعظام واحترام(١).

إلا إبليس استكبر : غير إبليس فإنّه لم يسجد. استكبر عن السّجود له تعظُّماً وتكبّرا(٢).

وكان من الكافرين : وكان بتعظّمه ذلك وتكبّره على ربّه ومعصيته أمره ممّن كفر في علم الله السّابق فجحد ربوبيّته وأنكر ما عليه الإقرار له به من الإذعان له بالطّاعة(٣).

أستكبرت أم كنت من العالين: تعظّمت عن السّجود لآدم فتركت السّجود له استكباراً عليه ولم تكن من المتكبّرين العالين قبل ذلك. أم كنت كذلك من قبل ذا علوّ وتكبّر على ربّك(٤).

قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين: قال لم أفعل ذلك استكباراً عليك ولا لأنىّ كنت من العالين ولكنّى فعلته من أجل أنّى أشرف منه(٥).

فاخرج منها : من الجنّة(٦).

فإنّك رجيم : مطرود عن الخيرات وعن منازل الملأ الأعلى(٧).

وإنّ عليك لعنتى : اللّعن الطّرد والإبعاد على سبيل السَّخَط(٨).

إلى يوم الدّين : إلى يوم مجازاة العباد ومحاسبتهم(٩).

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٧٢.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٩.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٩.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٩.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٩.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٩.

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «رجم» ١/ ٢٥٢.

(٨) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «لعن» ٢/ ٥٨١.

(٩) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٩.

فانظرنى إلى يـوم يبعثـون : فأخّرنى في الأجل ولا تهلكنـى إلى يوم تبعث خلقك من قبورهم(١).

إلى يوم الوقت المعلوم : إلى وقت النّفخة الأولى(٢).

فبعزّتك : بقدرتك وسلطانك وقهرك ما دونك من خلقك(٣).

لأغوينّهم أجمعين : لأضلّنّ بنى آدم أجمعين(٤).

إلاّ عبـادك منهم المخلصين : إلاّ من أخلصتـه منهم لعبـادتك وعصمـته من إضلالى فلم تجعل لي عليه سبيلاً فإنىّ لا أقدر على إضلاله وإغوائه(٥).

قال فالحقّ : الحقّ مبتدأ مرفوع، والخبر محذوف تقديره منى(٦).

والحقّ أقول : مفعولٌ به مقدّم منصوب بمعنى وأقول الحقّ(٧).

قل يا محمّد لقومك كفّـار مكّة : هذا القرآن الكريم نبأٌ عظيم، وخبرٌ جديدٌ غـايةٌ في الأهّميّـة وخطير. أنتم عنه يـا كفّـار مكّة منصرفـون، وله منكرون، وبه كافرون. إنّكم لو استمعتم إليه بوعي، وتأمّلـتموه بفهم، وتدبّرتموه بعقل، لانتهيتم إلى أنّه يجب أن يكون كلام ربّ العالمين. إنّ هذا القرآن الكريم تحدّث ـ مثلاً ـ عن خلق الله تعـالى آدم عليه السّـلام. وأنتم تزعـمون أنّى تكلّفت هذا القـرآن الكريم وأتيت به من عند نفسى. هلاّ فكّرتم قليلاً في اتّهامكم لي بأنّى افتريت هذا القرآن وزعمت أنّه مـوحىً به إليّ من ربّ العالمين. بشأن خلق آدم عليـه السّلام. مِنْ أين لي أن أعلم ردّ فعل الملائكة حينما أنبأهم الحقّ جلّ وعلا بأنّه سوف يخلق بشراً من طين، أو أن أعلم القـول الّذي جـرى على لسـانهم، والحـوار الّذى تمّ بينهم وبين

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٩ ومفردات الرّاغب الأصفهانى: «نظر» ٢/ ٦٤٣.

(٢) الجـلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٩.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٠.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٠.

(٦) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١١٧ وتفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٠.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢٠ و الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١١٧.

الحقّ جلّ وعـــلا. ومنْ أين لي أن أعلم طاعـــة الملائكة لله تعـالى الّـذى أمـرهم بالسّجود لآدم عليه السّـلام سجود تحيّةٍ واحترام، وعـصيان إبليس اللّعين الله تعالى ربّ العالمين، وامتناعه عن السّجود لآدمَ عليه السّلام سجود إكرامٍ وإعظام.

إنىّ ما كان لي من علمٍ بالملائكة إذ يختصـمون في شأن آدم عليه السّلام. ما يُوحَى إليّ إلاّ أنّى نذيـرٌ لكم يا أهل مكّة بين يدي عـذاب يوم القـيـامـة الشّـديد للكافرين. أمّـا أنا فما كان لي من علمٍ بالملائكة إذ يـختصمون في شـأن آدم عليه السّـلام لأنّى لم أكن من الشّاهدين ما جـــرى آنذاك، وأنّى لي أنـا ابن الخمسـين ـ مثلاً ـ أن أكـون من حاضرى ملابسات خلق أبى آدم عـليه السّلام الّذى تمّ بإرادة الله تعالى قبل زمنٍ لا يعلم حقيقـته إلاّ الله تعالى! إنّى لم أكن من الحاضرين ولم يكن عندى علمٌ قبل القرآن الكريم بالملائكة إذ يختـصمون ويتحاورون إذ قال ربّك يا محـمّد وإلهك الفـعّال لما يريد: إنىّ خـالقٌ بشراً من طين، هو أبوكـم آدم عليه السّلام. فإذا سوّيت خلـقه وجعلته في أحسن الأحوال، وأتممت صـورته وجعلتها في أجمل الأشكال، ونفخت فيه من روحى، فكان بهذه الرّوح ذا شوقٍ إلى السّموّ والكمال، وذا طموح للقيـام بجليل الأعمال، والاتّصاف بجميل الخـصال، فبادروا إلى السّجود له سجود تحيّـة وتكريم، وضعوا جباهكم وأنوفكم على الأرض، دليل الاحترام والتّعظيم.

خَلَقَ الله تعالى آدم عليـه السّلام، وجعله في أجمل صـورة وأحسن تقويم، فسجد الملائكـة كلّهم بلا استثناء لآدم عليه السّلام سجـود تحيّة وتعظيم، إلاّ إبليس اللّعين فإنّه لم يكن من السّاجدين. لقد امتـلأت نفس اللّعين كبراً وغطرسةً وتعالياً واستنكف أن يسجـد لآدم عليه السّلام سجـود تحيّةٍ وتكريم حسداً له وبغـياً عليه. وكان اللّعين من الكافرين في سابق علم الله تعالى، العاصين له عزّ وجلّ، المنكرين ما يجب عليهم لله تعالى من طاعة وإذعان.

قال الحقّ جلّ وعلا: يا إبليس، ما الّذى منعك أن تسجد لآدم، الّذى خلقته بيديّ، وأمرتك بالسّـجود له سجود تكريمٍ وتعظيم؟ أكـان ذلك بباعث الكبر الّذى أمتلأ به صدرك، والـورم الّذى انتفخت بسببه نفـسك بين جنبيك، والغطرسة الّتى

استبـدّت بك؟ أم أنّ امتناعك يا إبليس من السّجود لآدم بسـبب تعاليك على آدم، واحتقارك له، واسـتهانتك به؟ أيّ باعثٍ حَمَلك يا إبليس على عـصيان أمرى لك بالسّجود؟.

قال اللّعين : أنا خيرٌ من آدم يا ألله وأفضل منه، خلقتني من نارٍ وخلقته من طين، والنّار أسمى من الطّين، والطّين لا يسمو سموّ النّار، والنّار تحرقُ الطّين!.

وحينما يعـتقد اللّعين أنّ النّار الّتى خُلق هو منها هي الأفـضل، فذلك معناه أنّ اللّعين مستكبر. وحينما يعتقد اللّعين أنّ الطّين الّذى خُلق آدم منه هو المفضول، فذلك معناه أنّ اللّعين متعال. وذلك معناه تحـقّق الصّفتين السّيّئتين في اللّعين اللّتين شملهـما سؤال الحقّ جلّ وعـلا اللّعين: ﴿أستكبرت أم كنـت من العالين﴾ وهاتان الصّفتان السّـيّئتان هما الكبر والتّـعالى. ومعروفٌ أن الكبر والتّعالـى وجهان لعملةٍ رديئةٍ واحـدة. إنّ الكبر يعنى التّـعالى على الآخرين، وإنّ التّـعالى يعنى انتـقاصٌ الآخرين واحتقارهم.

وكانت الثّمرة النّكدة لهذه الصّفات السّيّئة الّتى اتّصف بها اللّعين أن كفر بالله تعالى فعصى أمره، ورفض طاعتـه، وامتنع عن السّجود لآدم عليه السّلام. وهكذا تحـقّق أخـيراً في اللّـعين قول الحقّ جـلّ وعلا: ﴿إلاّ إبليـس استكبـر وكـان من الكافرين﴾ والمعنى: إلاّ إبليس اسـتكبر في ذاته، وتعالى على آدم، وكفـر بما عليه الإقرار به من الإذعان لله تعالى بالطّاعة.

قال الحقّ جلّ وعلا لإبليس فاخرج من جنّتى فإنّك مطرودٌ من الملأ الأعلى. وإنّ عليك لعنتى وطردى لك من رحمتى إلى يوم الجزاء.

قال اللّعين يا ربىّ فأخّـرنى إلى يوم تبعث الخلق يوم القيامة بسبـب الصّيحة الثّانية من إسرافيل الّتي يحيـا بها الخلائق ويُكْتَب للنّاس الخلود، إمّا في الجنّة بشأن المؤمنين، وإمّا في النّار بشأن الكافرين. وقد أراد اللّعين بتعيين الوقت بالنّفخة الثّانية الخلود.

قال الحقّ جلّ وعلا : فـإنّك يا إبليس من المؤخّرين إلى يوم الوقت المعلوم، وهو وقت الصّيحة الأولى الّتى يموت بسببها الخلائق إلاّ من شاء ربّك من الملائكة

والولدان والحور العين.

قال اللّعين : فأقسم بعزّتك وجلالك وقهرك ما دونك من خلقك لأغوينّ بنى آدم أجمعين. إلاّ عبادك الّذين اصطفيتهم بإخلاص العبادة لك، وأكرمتهم بطاعتك، فلا سلطان لي عليهم.

قال الله تعالى : فالحقُ منّى، وأقول الحقّ: لأملأن جهنّم منك يا إبليس ومن ذرّيّتك وممّن تبعك من بنى آدم، ولأدخلنّكم النّار ولأحرقنّكم بها أجمعين.

قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

وما أنا من المتكلّفين : الكَلَف الإيلاع بالشّيء. يقال: كَلِف فلانٌ بكذا. وتكَلُّفُ الشّيء ما يفعله الإنسان بإظهار كَلَف مع مشقّة تناله في تعاطيه. وصارت الكُلْفة في التّعارف اسماً للمشَقّة. والتّكلّف اسمٌ لما يُفْعل بمشقّةٍ أو تصنُّع أو تشبّع(١) ولذلك صار التكلّف على ضربين: محمود، وهُو ما يتحرّاه الإنسان ليَتوصّل به إلى أن يصير الفعل الّذى يتعاطاه سهلاً عليه، ويصير كَلِفاً به ومحبّاً له. وبهذا النّظر يُسْتعْمل التّكليف في تكلّف العبادات. والثانى: مذموم، وهو ما يتحرّاه الإنسان مراءة. وإيّاه عُني بقوله تعالى: ﴿قل ما أسألكم عليه من إجرٍ وما أنا من المتكلّفين﴾(٢).

إن هو إلاّ ذكرٌ للعالمين: ما هذا القرآن إلاّ تذكيرٌ من الله للعالمين من الجنّ والإنس، ذكّرهم ربّهم إرادة استنقاذ من آمن به منهم من الهلكة(٣).

بعد حين : الحِين وقت بلوغ الشّيء وحصوله. وهو مبهم المعنى ويتخصّص بالمضاف إليه. ويأتى على أوْجُه، ومنها الزّمن المطلق. والحين هنا بهذا المعنى(٤).

---

(١) أي بولَع واشتياق.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «كلف» ٢/ ٥٦٥.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٢١.

(٤) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حين» ١/ ١٨٢.